﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [المائدة: 45]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لمَّا بيّن سبحانه تعالى في الآية السّابقة أنّه ذكر في التّوراة أحكام حدّ الزّنا، وأنّ حكم الزّاني المحصن الرّجم، وأنّ اليهود غيّروه وبدّلوه، وكلّ ذلك في مقام الحفاظ على الأعراض، ذكر في هذه الآية ما يتعلّق بأحكام الحفاظ على النّفس؛ فذكر أحكام القصاص، لكنّ اليهود بدّلوها وغيّروها، وفرّقوا بين الشّريف والوضيع، والأمير والغفير، وظهر ذلك واضحًا في التّفريق بين القتيل من بني قريظة وبني النّضير، حيث فضّلوهم على بني قريظة.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَكَتَبْنَا﴾: الكاف والتّاء والباء: أَصلٌ صحيحٌ واحدٌ يدلُّ على جمع شيء إلى شيء، ومنه قيل: كتبتُ الكتاب؛ لأنَّه يجمع حرفًا إلى حرف، والكتاب: اسمٌ لما كُتِبَ مجموعًا، وكَتَبَ الشَّيء، أي: خَطَّه، ومِن معاني الكِتَاب: الصَّحيفة، والدّواة[1]، ويعبّر عن الإثبات والتّقدير والإيجاب والفرض والعزم بالكتابة، ووجه ذلك أنّ الشّيء يُراد، ثمّ يُقال، ثمّ يُكتب، فالإرادة مبدأ والكتابة مُنتهى، ثمّ يعبّر عن المراد الّذي هو المبدأ إذا أُريدَ توْكِيدُه بالكتابة الّتي هي المنتهى، قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: 21]، وقال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾، أي: أوجبنا وفرضنا[2].

2) ﴿ٱلنَّفْسَ﴾: الرُّوح، يُقال: خَرَجَت نَفسُ فلانٍ، أي: رُوحُه، وتأتي بمعنى العين،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والفيروزآبادي، القاموس المحيط، وابن سيده، المحكم، والجوهريّ، الصّحاح: (كتب).
(2) الرّاغب، المفردات: (كتب).

فيُقال: أَصابَت فُلانًا نَفسٌ، أي: عينٌ، ونَفسُ الشَّيء: عَينُه، وأَصلُ الكلمة مِنَ التَّنفيس، وهو الخروج مِنَ الجَوف، ومنه النِّفاسُ وهو الولادة، والنّفس: الرّيح الدّاخل والخارج في البدن منَ الفم والمنخر، وهو كالغذاء للنّفس، وبانقطاعه بطلانها[1].

ويُطلَق النَّفسُ على الدّم؛ لأنَّه أَساسُ الحياة، أو لأنّ الرُّوحَ تخرج بخروجه، يُقال: سالَت نَفسُه، أي: دَمُه، ومِن معانيها أيضًا: الجسد والحسد والذّات والحقيقة والعزّة والهمّة[2].

3) ﴿وَٱلۡعَيۡنَ﴾: الجارحة، وهي الّتي يُبصر بها النّاظرُ، وتُطلَق على الشَّيء المَحسوس المُشاهَد بالعين الباصرة، وعينُ الشَّيء نَفسُه، يُقال: أَخَذتُ مالي بعَينه، أي: نَفسَ مالي، وتأتي بمعنى المال العتيد الحاضر، يُقال: اشتَرَيتُ عَينًا بعينٍ، أي: حاضرًا بحاضرٍ، ومن معانيها: يَنبوع الماء الّذي يَنبُعُ مِنَ الأَرض ويجري، والجاسوس، وما ضُرِبَ مِنَ الدَّنانير والدَّراهم، وغير ذلك، وجمعها: عيونٌ، وأعينٌ، وأعيانٌ[3].

4) ﴿وَٱلۡأَنفَ﴾: أَصلُ الأَنف: الجارحة، ثمَّ يُسمَّى به طَرَفُ الشَّيء وأَشرَفُه، فيُقالُ: أَنفُ الجبل وأَنفُ اللِّحية، ونسبوا الحَميَّة والغضب والعزَّة والذّلَّة إلى الأَنفِ، وقِيلَ: شمخ فلانٌ بأَنفه: للمُتكَبِّر، وتَرِبَ أَنفُه للذَّليل، وأَنِفَ فلانٌ من كذا بمعنى استَنكَف، واستَأنَفتُ الشَّيء: أخذتُ أنفَه، أي: مَبْدَأَه، ومنه قوله ﷻ: ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ﴾ [محمد: 16] أي: مبتدأ[4].

5) ﴿وَٱلۡأُذُنَ﴾: مَوضِع السَّمع، وأَذَنتُه أَذنًا: ضَرَبت أُذُنَه، ورَجُلٌ أُذُنٌ وامرأَةٌ كذلك: إذا استمع من كلِّ أحدٍ، والأُذُنُ: عُروَة الكوز ونحوه[5].

6) ﴿وَٱلسِّنَّ﴾: قطعةٌ مِنَ العظم تَنبُتُ في الفكِّ، وقيل: الضِّرسُ، والسِّنُّ مِنَ الشّيء: كُلُّ جزءٍ مُحَدَّدٍ أو مُسَنَّنٍ على هيئتها، مثلُ: سِنِّ المُشط، أوِ المنشار، ومن معانيها: العُمرُ، وجمع السِّنِّ: أسنانٌ[6].

7) ﴿وَٱلۡجُرُوحَ﴾: الجرحُ: أثرٌ دَامٍ في الجلد، يُقال: جَرَحَه جَرحًا، فهو جَريحٌ ومجروحٌ،

(1) الرّاغب، المفردات: (نفس).
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (نفس).
(3) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (عين).
(4) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (أنف).
(5) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط: (أذن).
(6) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (سنن).

قال تعالى: ﴿وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ﴾، وسُمِّي القَدحُ في الشَّاهد جرحًا تشبيهًا به، وتُسمَّى الصَّائدة مِنَ الكلاب والفهود والطّيور جارحة، وجمعها: جوارح؛ إمّا لأنَّها تَجرح، وإمَّا لأنَّها تكسب، قال ﷻ: ﴿وَمَا عَلَّمۡتُم مِّنَ ٱلۡجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ [المائدة: 4]، وسُمِّيت الأَعضاء الكاسِبة جَوارحَ؛ تشبيهًا بها لأحد هذين[1].

8) ﴿قِصَاصٞۚ﴾: المماثلة والمساواة، يُقال: اقتَصَّ مِن عَدُوِّه، أي: فَعَلَ بعدوِّه مِثلَ ما فعل به، والقِصاصُ أيضًا: المُعاقبة بالمثل، ويأتي بمعنى المقابلة، وأَصله مِنَ القَصِّ، وهو: التّتَبُّعُ، يُقال: قَصّ الأَثَرَ، أي: تَتَبّعَه، ومنه القاصُّ: وهو الّذي يَتبَعُ الأَخبار، وقيل القصُّ: القطعُ، ومنه سُمِّيَت المُعاقبة بالمثل قِصاصًا؛ لأنّه يَتَتَبّعُ جنايةَ الجاني، ويأخذُ مثلَها منه، أو لأنَّه يَقطَعُ مِن بَدَنِه مِثلَ ما قَطعَ، ومِن أسمائه أيضًا: الجزاءُ والقَوَدُ[2].

9) ﴿تَصَدَّقَ بِهِۦ﴾: الصَّدقة: اسمٌ لِمَا يُتَصَدّقُ به مِن مالٍ ونحوه، أو ما أعطَيتَه في ذات اللّه تعالى للفقراء والمساكين، والتّصَدُّقُ: إعطاء الشّيء تقرّبًا إلى اللّه تعالى، يُقال: تَصَدَّقتُ عليه، أي: أَعطَيتُه صدقةً، والمُتَصَدِّقُ: المُعطي، وأَصل الكلمة مِنَ الصّدقِ، وهو: القوّة والصّلابة، ومنه سُمِّيَت بذلك؛ لدلالتها على قوّة إيمان وصدق صاحبها، والجمعُ: صدقاتٌ[3]، ويُقال لما تجافى عنه الإنسان من حقّه: تصدّق به، نحو قوله تعالى: ﴿وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ﴾، أي: من تجافى عنه، وفي نحو قوله: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٖ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٖۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ [البقرة: 280]، فإنّه أجرى ما يسامح به المعسر مَجرَى الصّدقة[4].

10) ﴿كَفَّارَةٞ﴾: مأخوذةٌ مِنَ الكفر، وهو السَّتر والتَّغطية، سُمِّيت بذلك؛ لأنَّها تُغطِّي الذَّنبَ وتَستُرُه حتّى يَصيرَ بمنزلة ما لم يُعمَل، يُقال: كَفَّرَ اللّه عنه الذَّنبَ، أي: محاه، وكأَنَّه غطَّى عليه بالكفَّارة، وكلّ ما غطّى شيئًا فقد كفره، ومنه قيل للَّيل: كافرٌ؛ لأنّه سترَ بظلمته كلَّ شيءٍ وغطّاه[5]، والكفّارة: ما يغطّي الإثم، ومنه كفّارة اليمين، وكفّارة القتل والظّهار[6].

(1) الرّاغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (جرح).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (قصص).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (صدق)، والجرجانّي، التّعريفات، ص: 176، والزّبيديّ، تاج العروس: (صدق).
(4) الرّاغب، المفردات: (صدق).
(5) الفيروزآبادي، القاموس المحيط، وابن سيده، المحكم، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (كفر).
(6) الرّاغب، المفردات: (كفر).

11) ﴿بِمَآ أَنزَلَ﴾: الإنزال: مصدرُ أَنْزَلَ، وهو نقلُ الشَّيء من أَعلى إلى أَسفل، يُقالُ: نزل الشَّيءُ، يَنزِلُ نزولًا، أي: هبط وانحَدَرَ مِن عُلُوٍّ إلى سُفلٍ، وأَصلُه: الانحطاطُ مِن عُلُوٍّ[1].

12) ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: الظُّلمُ: الجَورُ ومُجاوزة الحَدِّ، يُقال: ظَلَمَه، يَظلِمُه، ظُلمًا ومَظلِمَةً، أي: جارَ عليه، وضدُّه: العَدلُ، وأَصلُه: وَضعُ الشَّيء في غير مَوضِعه، كقولهم ظَلَمَ الأَرضَ: إذا حفرها في غير مَوضِع حَفْرِها، ومِن معانيه أيضًا: التّعَدِّي والحَيف[2].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

بيَّن الله تعالى في الآية الكريمة أنَّه فرَض على اليهودِ في التّوراة القِصاصَ بأن تُقتَلَ النَّفسُ إذا قَتَلَت نفسًا أُخرى عَمدًا بغير حقٍّ، وكذا العينُ مُقابلَ العين، والأَنفُ مقابلَ الأَنف، والأُذُنُ مُقابلَ الأُذُن، والسِّنُّ مقابلَ السِّنِّ، كما فرض القصاصَ في الجُروح، فللمَجروحِ أن يقتَصَّ بالمثل ممَّن جرَحَه ظُلمًا، فمَن تنازَلَ عن حقِّه منَ القِصاص فيما سبق فعفا عمَّن تعدَّى عليه، فسيُكفِّرُ الله ذنوبَه جزاءَ عفوه عنه، وأَخبر تعالى أنَّ مَن لم يحكم بما أنزل الله، ويعرض عمّا شرعه الله منَ القصاص والعدل والتّساوي بين الأفراد فهو منَ الظّالمين الّذين يغمطون النّاس حقوقهم[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

سرّ عطف قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾ على قوله ﴿أَنزَلْنَا﴾:

توثيق الأحكام الشّرعيّة مبدأ إسلاميّ:

عطف: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾ على ﴿أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾؛ لوجود مناسبةٍ بينهما، وذلك من وجهين:

أحدهما: أنَّ الجملتين خبريتان، فبينهما توسُّط بين الكمالين مع وجود الجامع، ووجودِ مناسبةٍ بينهما من جهة كون المسند إليه واحدا، والمسند واحدا أيضًا، وهو الفَرض أو التَّشريع.

والآخر: أنَّه ناسب عَطف هذا الحُكم على ما تقدَّم أنَّهم غيَّروا

(1) الفيروزآبادي، القاموس المحيط، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (نزل).
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (كفر).
(3) حجازي، التّفسير الواضح: 6/90.

أَحكامَ القِصاص كما غيَّروا أحكام حدِّ الزِّنا، ففاضلوا بين القتلى والجرحى، فالأولى أنزل الله أحكامَ الحفاظ على الأعراض، وفي الأخرى أنزل الحفاظ على الأنفس والدّماء، لكنّهم بدّلوا وغيّروا في كلّ منهما.

سرُّ التَّعبير بلفظ الكتابة في قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾:

عبّر القرآن الكريم بالفعل ﴿وَكَتَبْنَا﴾؛ لأنّ هذه المادّة الَّتي صِيغ منها الفعل - وهي الكتابة - تعطي معنى الْفَرْضِ واللُّزوم، ويكون معنى النّصّ الكريم أنّنا فرضنا وحكمنَا حكمًا مكتوبًا خالدًا غير قابلٍ للمحو في أيّ عصرٍ منَ العصور[1].

نكتة مجيء الفعل ﴿وَكَتَبْنَا﴾ بصيغة الماضي:

جاء الفعل (كتب) على هذه الصّيغة ليدلّ على الزَّمن الماضي، ممَّا يفيد استقرارَ الأَمرِ وثبوتَه، فضلًا عن عظمة مُشرِّعه، ولا سيَّما أنَّه اتَّصل بنون العظمة العائدة عليه جلَّ في علاه، وليفيد أقدميَّةَ الحكم، وكونَه مُقرَّرًا[2].

دلالة تعدّي الفعل (كتب) بحرف الجرّ (على):

دلّ تعدّي الفعل (كتب) بحرف الجر (على) على أنّ المراد بها هنا الفرض والتّشريع، والمعنى: فرضنا وأوجبنا عليهم في التَّوراة أنَّ النَّفسَ بالنَّفس، ويجوز أن يُراد الكتابة الحقيقيَّة، وهي الكتابة في الألواح؛ لأنَّ التَّوراة نزلَت مكتوبة في الألواح، ولهذا تعدَّى فعل (كتبنا) بحرف (في) فهو منِ استعمال اللَّفظ في حقيقته ومجازه، وفيه إشارة إلى أنَّ هذا الحُكم لا يُمكن جحده؛ لأنَّه مكتوب، والكتابة تزيد الكلام توثيقًا[3].

تعيين مُتعلّق الفعل ﴿وَكَتَبْنَا﴾:

المكتوب عليهم: هو المصدر المستفاد مِن (أنَّ) وما دخَلَتْ عليه، والمأخوذ من حرف الباء الَّذي هو التَّعويض، أي: كتبنا عليهم تعويضَ النَّفس المقتولة بالنَّفس القاتلة، أي: مساواة القِصاص.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/2205.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/196.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/213.

دلالة حرف الجرّ ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾:

التَّعبير بحرف الجرّ (على) أفاد معنى استعلاء الحُكم، وتمكُّنه فيهم[1].

سرّ التّعبير بالظّرفيّة في قوله: ﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ﴾:

التّعبير بالظّرفيّة أفاد استقرار حكم القصاص في التّوراة، وتمكّنه منها تمكّن الظّرف منَ المظروف.

سرّ اتّفاق القرّاء على فتح همزة ﴿أَنَّ﴾ في هذا الموضع:

فُتحَت همزة ﴿أَنَّ﴾ هنا؛ لأنّ المفروض في التّوراة ليس هو عين هذه الجُمل، ولكنّ المعنى الحاصل منها، هو العوضيّة والمساواة فيها.

سرّ تقديم الجارّ والمجرور ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ في قوله: ﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ﴾:

قُدّم الجارُّ والمجرور؛ لأنّ البدء بذكر المكتوب عليهم آكد من ذكر المكتوب؛ لتعلّق الكَتب بمَن يؤدّي، فيترقّب المكلّف التّكليف، وتتطلّع نفسُه إلى المكتوب عليه.

دلالة التّعبير بـ (الباء) في قوله: ﴿أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ﴾:

عُبّر بـ(بالباء)؛ للدّلالة على أنّ النّفس مقابلة بالنّفس، تؤخذ بها، وتكون بدلًا، فالباء هنا للمقابلة، فكما أنّ المقابلة تكون في البيوع تكون في النّفوس إذا اعتدت، وتصير نفس الجاني كأنّها شيء منَ الأشياء، وهو الّذي أهانها[2].

دلالة التّعبير بقوله: ﴿ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ﴾:

دلّ التّعبير على عموم النّفس من غير تخصيص ولا تفريق، فالعبرة بالتّساوي في الإنسانيّة، وفي النّفس الآدميّة، فلا تفاضل بين نفسٍ ونفس، ولا التفات لقول الّذين يفرّقون بين الأنفس؛ لأنّ النّصّ القرآنيّ محكمٌ في وجوب القصاص في الأنفس من غير تفرقة، قال الله تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [البقرة: 179][3].

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/271، والحناويّ، آيات القصاص دراسة بلاغيّة، ص: 847، وأبو صعيليك، الإعجاز البيانّي والتّشريعيّ في آيات القتل، ص: 107.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/2205.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 4/2205.

سرّ التّعبير بالأعضاء المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ﴾:

كـرامـة أجـزاء الإنـسـان من كـرامـةِ الإنسانِ نفسِهِ

التّعبير بهذه الأعضاء في هذا النّصّ يبيّن أنّ القصاص بين الأطراف كالقصاص بين الأنفس، فالعين إذا فُقئت حتّى لم يبقَ فيها مجالٌ للإدراك؛ فإنَّ عين الجاني تُفقأُ بها، والأَنف إذا جُدعَ جميعهُ فإنَّه يُجدع أنف الجاني بهِ، والأُذن إذا قُطعت جميعها فإنَّها تُقطع أذنُ الجاني بها، وكذلك السِّن، والّذي يدلّ على ذلك هو الإتيان بالألف واللّام في هذه الأعضاء، فكأنّه أشار إلى العين كاملة، وكذا بقيّة الأعضاء.

فأمَّا لو كانتِ الجناية ذهبت بِبَعْضِ إدراك العين أو ببعض الأَنف أو ببعض الأُذن أو ببعض السِّن، فليس في هذه الآية ما يدلُّ على ثبوت القِصاص[1]، وإنّما اختلف الفقهاء في قيمة ما وقع من بعض الجنايات في هذه الأعضاء، وهذا محلّه كتب الفقه.

سرّ الاقتصار على هذه الأعضاء:

اقتصر على هذه الأعضاء دون غيرها؛ لشرفها ولإمكان القياس عليها، يقول ابن العربيّ: (نصَّ على أمَّهات الأعضاء، وترك باقيها للقياس عليها، وكلّ عضو فيه القِصاص إذا أمكن ولم يخشَ عليه الموت، وكذلك كلّ عضو بطلَت منفعته وبقيت صورته فلا قود فيه، وفيه الدّيّة لعدم إمكان القود فيه)[2].

ويضاف إلى ذلك ما ذكره ابن عاشور بقوله: (لأنّ القطع يكون غالبًا عند المضاربة بقصد قطع الرّقبة؛ فقد ينبو السّيف عن قطع الرّأس فيصيب بعض الأعضاء المتّصلة به من عين أو أنف أو أذن أو سنّ، وكذلك عند المصاولة؛ لأنّ الوجه يقابل الصّائل)[3].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/154، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/43، والقنّوجيّ، فتح البيان: 3/433.
(2) ابن العربيّ، أحكام القرآن: 2/135.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/214.

سرّ إفراد هذه الألفاظ وجمع الجروح:

جُمِعَت الجروحُ لإمكان تعدُّدها في الشَّخص الواحد، بخلاف تلك[1].

المراد باللام في النّفس الأولى وما عطف عليها:

المُرادُ بالنَّفس الأولى: نَفسُ المُعتدَى عليه، ولام التَّعريف في المَواضِع الخمسة داخلةٌ على عضو المَجنِي عليه، ومجرورات الباء الخمسة على أعضاء الجاني.

دلالة (الواو) بين العطف والاستئناف في قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ﴾:

تتباين آراء العلماء في دلالة الواو في الآية، فذكر أبو علي الفارسيّ وجوهًا للعطف، منها: أنَّ جملة ﴿وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ﴾ وباقي المعطوفات منصوبةٌ عطفًا على اسم إنَّ، وبالرَّفع جملة اسميَّة معطوفة على جملة فعليَّة ﴿وَكَتَبْنَا﴾، ويكون هذا ابتداءَ تَشريعٍ وبيانَ حُكمٍ جديد غير مندرج فيما كُتب في التَّوراة[2].

وذهب الخطيب إلى أنَّه لا عطفَ، والكلامُ محمولٌ على الاستئناف، وليس ابتداءَ كلام مُنقطع عن سابقه، إنَّما هو استئناف جوابٍ يتمُّ به الكلام المُنبثق منَ الجملة السَّابقة، ويكون الكلامُ جوابَ سؤال مقدَّر، كأنَّه لمّا سمع قوله: ﴿ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾، قال قائلٌ: ما حالُ غير النَّفس؟ فقال الله تعالى: ﴿وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ﴾[3].

سرّ التّرتيب في ذكر الأعضاء:

بُدِئَ بالعين؛ لأنّها أشرف الأعضاء وأكملها، ولا يُستغنى عنها، فهي زينة الوجه، ومحلّ الجمال في الخلقة، وبها النّظر والبصر، إلى غير ذلك منَ الوظائف الحسّيّة والمعنويّة، ثمّ ثنّى بالأنف لأهميّته حسًّا ومعنًى، فمنه النّفَسُ والتّنفس، ويكنّى به عنِ الشّموخ والعظمة، ثمّ ثلّث بالأذن مع بالغ أهمّيتها، لكنّها في الأثر أقلّ، ثمّ ختم ذكر الأعضاء بالأسنان، وهي في ترتيبها تدلّ على قدر وظيفتها.

دلالة ﴿وَٱلْجُرُوحَ﴾:

الجروح غير قطع الأطراف المتميّزة الّتي يجري فيها التّماثل، مثل: الشّجاج بكلّ

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/110.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 4/271، والسّمين، الدّرّ المصون: 4/273.
(3) الخفاجيّ، عناية القاضي: 3/246، والآلوسّي، روح المعاني: 3/315.

مراتبها، ومثل: الجروح في أجزاء الجسم، وهذا يدلّ على أنّ جسم الإنسان مصانٌ، ومحاطٌ بالحفاظ عليه، وعدم الاعتداء ولو كان ذلك بجرحٍ يسير، فشرّع الإسلام القِصاص؛ لإعلاء شأن الإنسان.

حرص الإسلام على كرامة الإنسان في كلّ المراحل:

سرُّ الوصف بالمصدر دون الوصف بالصِّفة الصَّريحة في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ﴾:

الوصف بالمصدر أكثرُ مبالغة مِنَ الوصف بالصِّفة الصَّريحة، فوَصْفُ الجروحِ بأنَّها قِصاص؛ لأنَّه لمّا كان كلُّ جُرح يجري فيه القِصاص؛ صارتِ الجروحُ كأنَّها مخلوقة مِن ذلك الفعل لكثرة تعاطيها له، والاعتياد عليه، فمَن جَرح غيرَه اقتُصَّ منه، ولهذا جعله نفسه هو المصدر لِلْمُبَالغة، ولا شكَّ أنَّ هذا أبلغُ من تقدير مُضاف محذوف، أي: الجروح ذات القِصاص، وفي هذا المعنى يقول ابن جنِّي - في قول الخنّساء: (فإنَّما هي إقبالٌ وإدبارٌ) - : إن شِئتَ على ذات إقبال وإدبار، وإن شِئتَ جعلتها نفسها هي الإقبال والإدبار، أي: مخلوقة منها[1].

سرّ إيثار التّعبير بالتّصدّق دون العفو:

حثّ الإسلام على العفو والصّفح في الدّماء والجروح منهج قرآنيّ:

المراد منَ التَّصدّق في الجملة: العَفو، والمُتصدِّق: صاحبُ الحقِّ، ومستوفي القِصاص منَ المجروح إن كان باقيًا، أو وارثه إن كان هالكًا[2]، وسرُّ التَّعبير عنِ العفو بالتَّصدّق في هذه الجملة الشَّرطيَّة: المُبالغة في التَّرغيب فيه[3].

ولأنَّ العفو لمّا كان عن حقٍّ ثابتٍ بيد مُستحقِّ القِصاص؛ جعل إسقاطه بمنزلةِ الصّدقة؛ ليُشير إلى فَرطِ ثوابه.

وعلى هذا فالكلام واردٌ على سبيل الاستعارة التَّبعيّة في الفعل

(1) ابن جنّي، المحتسب: 2/89، والقزوينيّ، الإيضاح: 1/108.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/155.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/43، والآلوسّي، روح المعاني: 2/398.

﴿تَصَدَّقَ﴾، فقد شبَّه العفو بالتَّصدق بجامع فرط الثَّواب في كلٍّ منها، واستُعير المشبَّه به للمشبَّه، واشتقّ منه ﴿تَصَدَّقَ﴾ بمعنى (عفا)[1].

تعيين مرجع الضّمير في ﴿بِهِۦ﴾ من قوله: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ﴾:

الضَّمير في (به) عائدٌ على القِصاص الشَّامل للنَّفس والأَعضاء والجروح الَّتي فيها القِصاص، وفي هذا إشارة إلى شيوع العفو في كلّ المراحل: النّفس وما بعدها.

نكتة الإضمار في موضع الإظهار:

عُبّر بالإضمار في مقام الإظهار في قوله تعالى: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ﴾؛ لأنّ التّصدّق يَحْمِلُ أكثر من معنًى، فهو يشير إلى حاجة الجاني الملحّة إلى العفو؛ لاستبقاء حياته، كما أنّ الفقير المعدم يحتاج إلى الصّدقة؛ لاستبقاء حياته، فاستبقاء الحياة أمرٌ مشترك بينَهما.

وللإشارة إلى أنّ فضل العافي على الجاني كفضل المتصدّق على المحتاج، وفيها إشارة إلى طلبِ العافي مرضاةَ الله في الدّنيا والآخرة.

دلالة التّعبير بقوله: ﴿كَفَّارَةٌ﴾ مع ذكر دلالة الضَّمائر في قوله تعالى: ﴿فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾:

الضَّمير ﴿فَهُوَ﴾ يعود على التَّصدّق، أي: فالتَّصدّق كفَّارة للمُتصدِّق، فمَن تصدَّق بجُرحه أو دَم وَليِّه فعفا عن حقِّه في ذلك، فإنَّ العفو كفَّارة له عن ذُنوبه يُعظِّم الله أجرَه بذلك، ويكفِّر عنه[2]، والضَّمير في ﴿لَّهُۥ﴾ يعود على المُتصدِّق، ويَحْتَمِل أن يعود على الجاني وإن لم يتقدَّم ذِكره، أي: ذلك العفو والتّصدّق كفّارة للجاني، تُسقط عنه ما لزمه منَ القصاص، ويَحْتَمِلُ أيضًا أن يكون المعنى أنّ كلّ مَن تصدّق واعترف بما يَجِبُ عليه منَ القصاص وانقاد له؛ فهو كفّارة لمَا جناه منَ الذّنب، والإضافة للاختصاص، وهذا ترغيب في العفو[3].

دلالة التّعبير بالجملة الشّرطيّة في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

هذه الجملة شرطيَّة تتناولُ كلَّ خارجٍ عن حكم الله مُتمرِّد على أحكامه وشرائعه، فهي

(1) الحناويّ، آيات القصاص دراسة بلاغيّة، ص: 848.

(2) البروسويّ، روح البيان: 2/398.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/198، والرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/369، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/276.

تحذيرٌ مِن مُخالفة حُكم الله، وتنبيهٌ على أنَّ التَّرغيب في العفو لا يقتضي الاستخفاف، وإبطال العمل به؛ لأنَّ حُكم القِصاص شُرِعَ لحكمةٍ عظيمة منها الزَّجر، وجَبر خاطر المُعتدَى عليه، والتَّفادي من ترصُّد المُعتدَى عليهم للانتقام منَ المُعتدين.

فإبطال الحُكم بالقِصاص يُعطّل هذه المصالح، وهو ظُلمٌ؛ لأنَّه غَمْطٌ لحقِّ المُعتدَى عليه أو وليّه، أمَّا العفو عنِ الجاني فيُحقِّق جميع المصالح، ويزيد مصلحة التَّحابب؛ لأنَّه عن طيب نفسٍ.

وجه إعادة التّحذير بعد استحباب العفو في قوله: ﴿فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ﴾:

ووجه إعادة التَّحذير بعد استحباب العَفو: أنَّه قد تغشى غباوة حكام بني إسرائيل على أفهامهم، فيجعلونَ إبطال الحُكم بمنزلة العفو[1].

سرُّ التَّعبير بالاسم الأحسن ﴿ٱللَّهُ﴾ والاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾:

التَّعبير بالاسم الموصول عمّا أنزله الله تعالى يُشعر بما في حيِّز الصِّلة من عَظَمَةِ المُنَزِّل، ثمَّ الرَّهبة والهيبة منه الَّتي أفادتها العَنْوَنة بالألوهيَّة في هذا المَوضِع ممَّا يقتضي الخضوع والاستسلام، ومِن ثمَّ الطَّاعة والتَّنفيذ[2].

بلاغة ختم الآية بقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

الجملة جواب الشَّرط، ومعناها: المبالغون في الظُّلم المتعدُّون لحدوده تعالى، الواضعون الشَّيءَ في غير مَوضِعه، وهي تذييلٌ مقرِّر لإيجاب العمل بالأحكام المذكورة[3].

بيان خطورة الاعتداء على حدود الله تعالى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 6/217.
(2) أبو صعيليك، الإعجاز البيانّي والتّشريعيّ في آيات القتل، ص: 108.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/43.

سرّ التّعبير باسم الإشارة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ في قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

التَّعبير باسم الإشارة للبعيد لـ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ يُرادُ به الإبعادُ والذَّمُّ، وتبشيعُ حالهم في بُعْدِهم عن تنفيذ أحكام اللّه المذكورة في التّوراة.

دلالة التّعبير بأسلوب الحصر والقصر في قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾:

اشتملت هذه الفاصلة على أسلوب الحصر في قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ للمبالغة في الوصف بهذا الإثم العظيم المُعبَّر عنه بالظُّلم، وبلوغهم أقصى درجاته؛ لأنَّه جَور وتبديل للأحكام.

ولهذا قصر صفة الظُّلم عليهم، أي: هم الكاملون في الظُّلم، وأكَّد هذا القصر بضمير الفصل[1].

مناسبة فواصل القرآن لمضمون آياتها:

النّظم القرآنيّ في فواصل الآيات المتعاقبة جمع بين جمال المَبنَى وسموّ المعنى:

جاءت هذه الفاصلة بوصف الظُّلم عقب أشياء مخصوصة مِن أمر القتل والجرح فناسب ذِكر الظَّالمين؛ لأنَّ الظُّلم مُنافٍ للقِصاص، وعدم التَّسوية، وفيه إشارة إلى ما كانوا قرَّروه من عدم التَّساوي بين بني النَّضير وبني قريظة.

ولأنَّهم لم ينصفوا المظلوم منَ الظَّالم في الأمر الَّذي أمر اللّه فيه بالعدل والتَّسوية بين الجميع، فخالفوا وظلموا، وتعدَّى بعضُهم على بعضٍ؛ ولهذا ختم الآية بقوله: ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾؛ لأنّه يناسب أوّلها في المعنى.

أمَّا الآية السَّابقة فقد ناسبَ ذِكر الكافرين، فختمها بقوله: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾؛ لأنَّه جاء عقب قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾، وهذا كفر، فناسب ذِكر الكافرين، وهكذا ختمَ كلَّ آيةٍ بما يناسب أوَّلها في المعنى.

(1) القنّوجيّ، فتح البيان: 3/435.

وهذا الوصف الجديد هنا ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لا يعني: أنَّها حالٌ أخرى كالّتي سبق الوصف فيها بالكفر، إنَّما يعني إضافة صفة أخرى لمَن لم يحكم بما أنزل الله[1].

وعلى هذا يكون المرادُ بالظُّلم الجَوْرَ، ويكون إثبات وصف الظُّلم؛ لزيادة التَّشنيع عليهم في كفرهم؛ لأنَّهم كافرون ظالمون[2].

حكمة تشريع القصاص:

من خلال ما سبق ذكره في الآية منَ التّأكيد على أخذ النّفس بالنّفس، وما تبع ذلك منَ الأعضاء المذكورة في الآية؛ فإنَّنا نلحظ أنَّ القِصاص - مِن أَعلاه في النَّفس إلى أدناه في الجروح - فيه تكريمٌ للإنسانِ، وحياةٌ هنيئة لهُ، كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: 179]، فإنَّه إن ساد الشُّعور بالقِصاص بين مَن تُسوِّل لهم أنفسُهم ارتكاب الجرائم سيتردَّدون في ارتكابها، ولا يُقدِمون على ذلك، ولا يصحّ أن نذهب إلى الرَّأفة بالجاني دون النَّظر لما آل إليه أثر الجناية في المجني عليه، وإلَّا كُنَّا نُعين الظَّالم، ونقيله من عثرته، ونترك المظلوم يَئِنُّ من جروحه المادّيَّة والنَّفسيَّة[3].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الرُّوح والنَّفس:

الرّوح بضمّ الرّاء في كلام العرب: النّفخ، سُمّي روحًا؛ لأنّه ريحٌ يخرج منَ الرّوح، لذا اقترن النّفخ مع الرّوح في قوله تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: 91]، وفي قوله: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ [السّجدة: 9].

والنّفس سُمّيت نفسًا؛ لتولّد النّفس منها، وهي تُطلق في كلام العرب على وجوه، فتُطلق على الدّم والعين والعزّة إلى غير ذلك منَ المعاني.

وجُعلت الرُّوح من أمرِ الله في قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: 85]، وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشّورى: 52]، بخلاف

(1) الخطيب، التّفسير القرآنّي للقرآن: 3/1106.
(2) الحناويّ، آيات القصاص دراسة بلاغيّة، ص: 851.
(3) أبو زهرة، الجريمة والعقوبة في الفقه الإسلاميّ، ص: 405.

النّفس، فقد جُعِلَت من عالم الخلق، قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [النّساء: 1]، والآيات في هذا عديدة.

ولمّا كانتِ الرّوح من عالم الأمر فهي أشرف منَ النّفس؛ لذا نسبت إليه سبحانه تشريفًا لها وتعظيمًا، قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر: 29][1].

وممّا يُذكر في الفرق بينهما أنّ الرُّوح جَوهَرٌ لطيفٌ حاملٌ قوَّة الحياة، والحسِّ، والحركة الإراديَّة، وهي أمرٌ منَ اللّه تعالى، تَعجز العقولُ عن إدراك كنهه، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: 85]. والنَّفس هي ما يجمع بينَ الرَّوح والبدن، وتُطلق على القوَّة الدَّاعية إلى البرّ والشَّرّ. والرُّوح: التَّنفُّس، وقد أراح الإنسان إذا تنَفَّس[2].

الزَّكاة والصَّدقة:

الفرق بينهما أنَّ الزَّكاة لا تكون إلَّا فرضًا، والصَّدقة قد تكون فرضًا، وقد تكون نفلًا، والتَّصدّق: مُطلق العطاء[3].

الجَور والظُّلم:

أصل الظُّلم نقصان الحقّ، والجَور العُدولُ عنِ الحقِّ، وخُولف بين النَّقيضين، فيقال في نقيض الظُّلم: الإنصاف؛ وهو إعطاء الحقّ على التَّمام، وفي نقيض الجَور: العدل؛ وهو العدول بالفعل إلى الحقِّ.[4].

(1) الدُّوري، دقائق الفروق اللّغويّة، ص: 137.
(2) الرّاغب، المفردات: (روح)، وعبد العظيم، موسوعة الفروق القرآنيّة: 2/748.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 267.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 259.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع، سورة المائدة من الآية 26 إلى الآية 106
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة المائدة من الآية 26 إلى الآية 106 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 9 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-61-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 9 : سورة المائدة من الآية 26 إلى الآية 106.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-61-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-3504784 بتاريخ 2023/03/27م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»